المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية – جامعة سيدي بلعباس
ISNN : 2170-0060 EISSN : 2602-523X
المجلد 17 -- العدد 01 -- جوان 2025 ص 54 - 71

نشأة الطريقة السنوسية في بلاد الحجاز (1825 -1854م)

The Emergence of the Basnusiyya Order in the Lands of Hijaz (1825-1854)

جفال عمر - أستاذ محاضر أ o.djeffal@lagh-univ.dz	تاريخ حديث ومعاصر	جامعة عمار ثليجي بالأغواط/ الجزائر

DOI :

الإرسال: 2025/03/24 **القبول**: 2025/06/11 **النشر**: 2025/06/19

ملخص:

يتناول المقال نشأة الطريقة السنوسية في بلاد الحجاز على يد محمد بن علي السنوسي الجزائري، ويهدف إلى تسليط الضوء على الفترة المجهولة من تاريخ نشأة السنوسية، إذ إن معظم الدراسات التي تناولت الطريقة السنوسية ركزت على فترة تطورها وانتشارها في برقة بطرابلس الغرب، مهملةً فترة نشأتها في الحجاز.

اعتمدنا على المنهج التاريخي التحليلي في تحليل الأسباب التي أدت إلى نجاح السنوسي في إرساء دعائم دعوته وانتشارها السريع في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، والتأثيرات المختلفة التي أحدثتها.

توصل البحث إلى أن السنوسي نجح في إرساء طريقة دينية جديدة قائمة على الجمع والمزج بين منهج حركة التوحيد التي قادها محمد بن عبد الوهاب، والمنهج الصوفي، فأعطى بذلك مفهومًا جديدًا للشخصية الإسلامية التي تجمع الفقه، الذي يثير العقول، والتصوف الذي يصلح النفوس. إلى جانب إنشائه العديد من الزوايا في بلاد الحجاز، جعل منها مراكز للنشاط الاجتماعي والديني، حتى اقترن إنشاؤها بالازدهار الثقافي والاقتصادي للمناطق المتواجدة بها. وقد ساهم كل هذا في تكوين نموذج ديني تجديدي أثّر لاحقًا في انتشار الإسلام في أواسط أفريقيا

الكلمات المفتاحية: محمد بن علي السنوسي؛ السنوسية؛ الحجاز؛ أبي قبيس؛ الزاوية.

Abstract:

This article explores the the Senussi Order in the lands of Hijaz at the hands of Muhammad al-Senussi al-Jazairi. It aims to shed light on the obscure period of the Senussi, as most studies on the Senussi Order have focused on its development and spread in Cyrenaica, neglecting its formative period in Hijaz.We have relied on the analytical historical method to analyse the reasons that led to al-Senussi's success in establishing the foundations of his call and its rapid spread in various regions of the Islamic world and the various impacts it had.The research concludes that al-Senussi succeeded in establishing a new religious order based on combining and blending

the approach of the Unitarian movement led by Muhammad ibn Abd al-Wahhab and the Sufi approach, thus providing a new concept of the Islamic personality that combines jurisprudence, which stimulates minds, and Sufism, which reforms souls. In addition to establishing numerous zawiyas in the lands of Hijaz, he turned them into centres of social and religious activity, to the extent that their establishment became associated with the cultural and economic prosperity of the areas where they were located.

Keywords: Muhammad bin Ali Al-Senussi; Senusiyya, Hijaz; Abu Qubais; Zawiya

مقدمة:

تعتبر الطريقة السنوسية دعوة تكاملية؛ خدمت الإسلام والمسلمين معا كما كان لها الأثر البارز في مسيرة الأمة الإسلامية، خاصة في الحجاز وشمال ووسط إفريقيا، إذْ جددت الفكر الإسلامي، وصفته مما ألحق به من بدع وخرافات، ووقفت بالمرصاد ضد التوسع الأوروبي في إفريقيا.

هذا وقد وضع الشيخ محمد علي السنوسي الجزائري، أساس الطريقة السنوسية سنة 1828م بمكة المكرمة ببنائه لأول زاوية سنوسية بها، وهي زاوية جبل أبي قبيس. ثم توالى إنشاء الزوايا السنوسية في الحجاز، وحظيت هذه الزوايا بإقبال عدد كبير من الحجازيين وحجاج بيت الله، ومنها انتشرت في باقي دول العالم الإسلامي، خاصة في شمال ووسط إفريقيا.

نحاول في هذه الدراسة إماطة اللثام عن حياة الشيخ محمد علي السنوسي، خلال إقامته بالحجاز، والمقدرة بحوالي 23 سنة متفرقة، وظروف إنشائه للحركة السنوسية، وإنتاجه العلمي هنالك.

للإحاطة بهذه الإشكالية سعينا للإجابة عن التساؤلات التالية:

- من هو محمد بن علي السنوسي؟
- كيف انطلقت الدعوة السنوسية في الحجاز؟ والأسس التي قامت عليها؟
- ما هي أبرز الأعمال التي أدتها الطريقة السنوسية في الحجاز والآثار التي خلفتها؟

وقسمنا الدراسة إلى مقدمة وثلاثة محاور مركزة وخاتمة، فالمحور الأول تناولنا فيه مولد ونشأة ورحلات السنوسي العلمية، والمحور الثاني خصصناه لفترة إقامة السنوسي في بلاد

الحجاز وتأسيسه للطريقة السنوسية هناك. أما المحور الثالث فكان حول دور وأثار الطريقة السنوسية في بلاد الحجاز.

كما سعينا في هذه الدراسة لتحقيق جملة من الأهداف يمكن ترتيبها على النحو التالي:

تسليط الضوء على شخصية جزائرية خدمت الإسلام والمسلمين خارج الجزائر.

- العوامل التي دفعت بالسنوسي إلى القيام بحركته الإصلاحية في الحجاز.

- الكشف عن الأسس والمنطلقات الفكرية والإصلاحية التي ارتكز عليها محمد بن علي السنوسي، زعيم الحركة السنوسية في بناء مشروعه الإصلاحي.

اعتمدنا في الدراسة على المنهج التاريخي في تتبع حياة السنوسي في بلاد الحجاز والأحداث التي رافقت حياته هناك. وتحليل دلالاتها وتقديم تفسير منطقي لكل منها، وذلك من خلال جمع المادة التاريخية المتعلقة بهذه الدراسة، من مصادرها الأولية والثانوية لتحليلها، واستخلاص ما كُتب عن كل واقعة أو حدث للإحاطة بالموضوع من جوانبه، من المصادر المعتمدة وما كتبه محمد بن علي السنوسي مثل كتاب إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، وكتاب بغية المقاصد، في خلاصة المراصد، وكتاب محمد الشريف السنوسي؛ الأنوار القدسيَّة في مقدِّمة الطريقة السنوسيَّة، وكتاب مؤرخ الطريقة السنوسية.

كما اعتمدنا على كتاب محمد الطيب الأشهب، السنوسي الكبير. وكتاب الشيخ عبد المالك بن علي، الفوائد الجليلة في أخبار السنوسية، وكتاب السنوسية دين ودولة، لمؤلفه محمد فؤاد شكري، والذي يُعد من الكتب الأساسية التي تناولت الحركة السنوسية؛ ككل منذ نشأتها إلى دورها في نشر الإسلام.

1. المولد والنشأة:

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن السنوسي الخطابي الإدريسي الحسنى مؤسس الحركة السنوسية. ولد يوم 12 ربيع الأول 1202هـ، الموافق ل 22 ديسمبر 1786م (لدجاني, 1967, ص ص). بوادى مينا بمنداس، الواقعة على ضفة وادي الشِلْف، بمنطقة الواسطة، التابعة لبلدة مُستغانم الجزائرية.

توفي والده ولم يبلغ الولد سنتين، وبعدها بسنوات قليلة توفيت والدته أيضا، فكفلته عمته فاطمة، وكانت امرأة منقطعة للتدريس والوعظ، فربته على حب العلم والتعلم، فحفظ القرآن الكريم، ومتون كثيرة من العلوم(عبد القادر بن علي, 1966, ص7) وفي سنة 1794م، توفيت العمة بوباء الطاعون، ولم يبلغ بعد سن العاشرة. فآلت كفالته

لابن عمه محمد السنوسي (الدجاني, 1967, ص 39) الذي حفظ على يديه القرآن الكريم، برواياته السبع، مع علم الرسم وضبط خط المصحف، كما تعلم العلوم العربية والدينية بالتدريج، وتراجم العلماء والقادة والفقهاء.

أحب السنوسي العلم والفروسية، فكان يومه مقسما على الدرس في الصباح وتعلم الفروسية في المساء، وبقي على هذه الحال حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره. وفي سنة 1804م، توفي ابن عمه محمد السنوسي، فكان ذلك ايذانا لرحيل السنوسي عن مسقط راسه إلى مدينة مستغانم لإكمال دراسته. حيث درس بها لفترة يسيرة، مختلف العلوم الدينية على يد نخبة من علمائها؛ مثل محيي الدين بن شاهلبة، ومحمد بن أبي زوينة، وعبد القادر بن عمور، ومحمد القندوز، ومحمد بن عبد الله، وأحمد الطبولي الطرابلسي.

وفي حوالي سنة 1806م، غادر السنوسي مستغانم وتوجه نحو بلدة مازونة، وتتلمذ فيها على يد محمد بن علي بن أبي طالب، أبو رأس الناصري وأبي المهل أبي زوينة. بعدها بسنة أي سنة 1806م، رحل نحو تلمسان حيث أقام بها سنة أخذ عن شيوخها مختلف العلوم الدينية.(علي الصلابي, 2001, ص 23)

2. رحلات السنوسي العلمية إلى خارج الجزائر:

1.2. الرحلة إلى فاس: 1805-1820م

شدّ ابن السنوسي الرحال سنة 1805م، إلى فاس، حيث مسجد القرويين، وبقي هناك مدة سبع سنوات. يحضر الحلقات العلمية لعلمائها مثل: حمودة بن حاج، حمدون بن عبد الرحمن، الطيب الكيراني، محمد بن عامر المعواني، أبي بكر الإدريسي، وإدريس بن زيان العراقي وغيرهم. وتبحر في دراسة الطرق الصوفية، مثل القادرية والناصرية والحبيبية والشاذلية والجازولية، واستطاع الحصول على عدد من الإجازات، من علماء فاس ليختمها بنيله المشيخة الكبرى، مما أهله لأنْ يصبح مدرسا بالجامع الكبير بمدينة فاس، حيث أقبل الناس عليه طلبا للعلم لما رأوا فيه من علم غزير وفكر ناضج. وفي سنة 1820م، غادر السنوسي فاس عائدا إلى الجزائر لأسباب اختلف حولها المؤرخون[1].

[1] للتوسع حول أسباب مغادرة السنوسي بفاس يمكنك الرجوع: الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن 19م.

2.2. العودة إلى الجزائر: (1820-1823م)

عاد السنوسي إلى الجزائر، وطاف بمدن الجنوب، حيث استقر في البداية ب عين ماضي، التي درس بها الطريقة التيجانية، ثم تركها ورحل إلى مدينة الأغواط، فمسعد ثم الجلفة وبوسعادة وكان في كل مدينة يزورها ينشط في التدريس والوعظ ونشر العلم، ضارباً المثلَ بالاستقامة والقدوة والصلاح والتفاني في إصلاح الناس. وفي جنوب شرق قسنطينة بنى أول مدرسة له للوعظ والتعليم وبقي بالجزائر إلى غاية سنة 1823م، حيث قرر أداء فريضة الحج.

3.2. الرحلة نحو الحجاز: (1823-1843م)

توجه السنوسي سنة 1823م، إلى الحجاز للحج، وفي طريقه نزل بتونس ومكث بها مدة من الزمن، نزولا عند طلب أعيانها ودرس خلالها بجامع الزيتونة، ثم سار نحو طرابلس الغرب حيث قام كذلك بالتدريس والتعليم في مساجد مدنها، بعدها واصل طريق رحلته نحو مصر.

وصل السنوسي مدينة القاهرة في سنة 1824م، ومكث برواق المغاربة بالجامع الأزهر حوالي السنة يدرس ويُدرس، حيث تحصل على عدة إجازات علمية(أبو القاسم, 2007, ص 249) بعدها غادر المدينة في السنة الموالية متجها نحو الحجاز، وكانت حينها خاضعة لحكم محمد علي باشا، وذلك بعد أن قضى ابنه إبراهيم باشا على الدولة السعودية الأولى عام1818م. وكانت إقامة السنوسي بمكة حوالي 23 سنة غير متصلة يمكن تقسيمها إلى الفترات التالية:

- الفترة الأولى: 1825-1833م.

قضاها في تحصيل العلوم والقيام بالتدريس، ثم رحل إلى قائم مقامية صبيا، التابعة لمتصرفيّة عسير، حيث كان يقيم أستاذه ابن إدريس ولازمه حتى وفاه الأجل، لمدة سنتين أي حوالي سنة 1835م. (الدجاني, 1967, ص 72)

- الفترة الثانية: 1835-1943م.

عاد السنوسي إلى الحجاز، وكان قد استقر في ذهنه الخطة التي سيعمل من خلالها لتنفيذ منهجه الدعوي، والعمل على إيقاظ العالم الإسلامي، من خلال الزوايا التي أخذ في إنشائها.

4.2. رحلة العودة إلى الجزائر: (1843- 1846م)

كان يحز في نفس السنوسي ما آل إليه أمر بلده الأم الجزائر، الأمر الذي جعله يُفكر في العودة إليها، وكان في سفره هذا محاولة للاتصال بالجزائريين للمساهمة في الثورات القائمة في البلاد. توجه ابن السنوسي سنة 1843م، نحو الجزائر فمرّ، بمصر وبرقة وطرابلس، وحين حاول الدخول إلى تونس وصلته بعض الأخبار عن تتبع المخابرات الفرنسية لخطواته واعتزامها القبض عليه، فعاد إلى مدينة طرابلس، ثم برقة حيث أقام بها إلى سنة 1846م.

وفي برقة أسس زاوية البيضاء في الجبل الأخضر، وشرع يُعلم الناس فيها، ويحل مشاكلهم فازدهر الجبل الأخضر وعم الأمن في ربوعه، وبدأت القبائل تتوافد إليه؛ طلباً للزيارة والتبرك وتتسابق في إقامة الزوايا أسوة بالزاوية البيضاء.

5.2. العودة إلى الحجاز: (1846-1854م)

عاد السنوسي إلى مكة سنة 1846م، بعد أنْ وطد الحركة السنوسية في برقة، وسيمكث بها حوالي الثماني سنوات. تابع خلالها نشر الدعوة السنوسية، وبناء الزوايا وإلقاء الدروس وتأليف الكتب. في سنة 1854م، غادر مكة نحو برقة نزولا عند رغبة أعيان برقة ووجهائها، الذين ألحوا عليه بالقدوم إليهم، وهناك بنى زاوية الجغبوب سنة 1856م، التي ستصبح الزاوية الرئيسية للطريقة السنوسية عوض زاوية أبي قبيس)علي, 2017, ص 302(وبقي السنوسي بزاوية الجغبوب إلى أنْ توفي بها سنة 1859م.(إبن إدريس الأشهب, 1956, ص 116–117)

3. محمد بن علي السنوسي في الحجاز:

مكث السنوسي في الحجاز حوالي 23 سنة، متفرقة كما أسلفنا، إذْ كانت البداية بوصوله إلى مكة سنة 1825م، كما سبق ذكره. وكانت مكة يومئذ وجهة لوفود الحجيج

القادمين من مختلف أقطار العالم الإسلامي، كما كانت تعج بكثير من العلماء، ومختلف المذاهب والاتجاهات الفكرية، من صوفية ومالكية وسلفية وهابية.

نهل السنوسي من العلوم والمذاهب الإسلامية المختلفة، على علماء مكة، منهم أبو سليمان عبد الحفيظ العجيمي؛ مفتي مكة وقاضيها يومئذ، وأبي حفص عمر بن عبد الرسول العطار أحمد بن محمد الدجاني.

كما احتك برموز الوهابية، وأخذ عنهم الفكر الوهابي وتعاليم أحمد بن عبد الوهاب الداعية إلى التوحيد الصحيح. بالعودة إلى الكتاب والسنة، ومحاربة البدع والخرافات كالتضرع بالأولياء وزيارة القبور وتقديم النذور والأضاحي.

على أنّ الذي أثر في شخصية ابن السنوسي وطبع شخصيته به هو العالم أحمد بن إدريس الفاسي (1173-1253م)، الملقب بأبي العباس العرائشي، مؤسس الطريقة الإدريسية أو الطريقة القادرية الإدريسية (الدجاني, 1967, ص 68). كان التجاوب العلمي والروحي قوياً بين السنوسي وابن إدريس، وسرعان ما ستتوثق العلاقة بينهما، وتصبح علاقة قوية في مدة وجيزة تربط بين تلميذ وشيخه.

أخذ السنوسي عن شيخه ابن إدريس الحديث والسنة وألم ببعض الطرق الصوفية، وفتح باب الاجتهاد في تفسير بعض الأحكام الشرعية، بعد إجازة ابن إدريس للسنوسي، شرع هذا الأخير في إلقاء الدروس في مكة المكرمة، وتعليم من يجتمع من حوله من المريدين وطلاب العلم.

بعد سنوات من الملازمة اضطر بن إدريس إلى مغادرة الحجاز، بسبب ما أثاره علماء مكة ضده، إذْ رموه بتهمة مخالفة المذهب المالكي وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فاضطر إلى مغادرة الحجاز فتوجه إلى منطقة صبية بالعسير(شكري, 1948, ص 61) حيث كان يسيطر عليها أتباع الفكر الوهابي، وقبل انتقاله أجاز ابن إدريس السنوسي، حيث أخذ مكانه في التدريس، وأوصى طلبته بطاعته وكان مما قاله لطلبته:

« ... أمّا ولدنا السيد محمد بن السنوسي، فنحن أمرناه أنْ يدل الخلق على الله، ويجذب الطالبين إلى الله، إياكم ثم إياكم من كل ما يقطعكم عن صحبته فإنّه النائب عنا قد اختاره الله لذلك، وقد طلب منا مراراً أنْ نجعل ذلك لمن يقوم به غيره، فلم نر فيه المصلحة إلا هو. ولو علم الناس منزلته وعلو مقامه عند الله لتزاحموا على بابه ليروا وجهه فإنّه قليل رجاله في زماننا، هذا والناس جاهلون قدره ويؤذونه، فإياكم ثم إياكم من أذيته.

فإنّ من آذاه أُخذ من حيث لا يشعر.. ونحن ما أقمناه حتى أقامه الله ورسوله، فقد قام امتثالاً لأمرهما فلم يكن له غرض لطلب دنيا ولا طلب جاه...(إبن إدريس الأشهب, 1956, ص 70)

هذا وقد حلّ السنوسي مكان شيخه في التدريس بمكة، إلى أنْ استدعاه ابن إدريس للقدوم إليه، في صبي، حيث سيمكث معه مدة عامين. وقبل رحيل ابن إدريس إلى صبي ترك ابنه في رعاية ابن السنوسي، ولما مرض دعا ابن إدريس السنوسي للقدوم إلى صبيه مع ابنه، فتوجه إليه رفقة ابنه، ومكث معه مدة عامين، قضاها كذلك في الدراسة والتدريس إلى أنْ مات شيخه ابن إدريس سنة1935م. (الدجاني, 1967, ص 72)

4. نشأة الطريقة السنوسية:

عاد السنوسي إلى مكة وقد اكتمل نضج عقله، وتمكن فكره من استيعاب حالة ووضع المسلمين في العالم الإسلامي، الذي كان أمام تحديات سياسية كبرى. فمن جهة الدول الأوربية القوية بأسلحتها وحضارتها تتربص به منتظرة لحظة الانقضاض عليه وتمزيقه. تقابلها الخلافة العثمانية وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، والتي كانت تمر بحالة انكماش، وتراجع، أثرت الحالة هذه على تطور العالم الإسلامي، وجعلته يعيش التخلف والهوان. وكان الشيخ قد فكر في الحل للخروج من تلك الدائرة، بتجديد الفكر الإسلامي، وإعداد الفرد المسلم للعمل والجهاد.

ولبلوغ هذا المرام وتجسيده على أرض الميدان، أنشأ السنوسي طريقة صوفية، تقوم على مفهوم التوحيد، ومحاربة المفاهيم المنحرفة؛ التي تزخر بها معظم الطرق الصوفية، مثل الجبرية أو الاتحاد أو وحدة الوجود. وكذلك على إصلاح حالة المسلمين المتردية، ومقاومة عوامل الانحطاط والتأخر، ومجابهة الغزو الأجنبي الاستعماري، إذْ يقول ابن السنوسي حول ذلك:

"...أفكر في العالم الإسلامي، فعلى الرغم من سلاطينه وأمرائه ورؤسائه وعلمائه، فهم لا يزيدون عن أنْ يكونوا كقطيع من الغنم، الذي لا راعي له في كل محل من محالّ الإسلام، تجد المسلمين وعلماء الدين، ولكنك لا تجد في العالم الإسلامي مرشداً حقيقياً، تكون غايته سوق الجميع إلى هدف واحد. إنّ ديننا الحنيف دين توحيد أُسس على الاتحاد،

ولكن الخلاف والتفريق قد سادا جميع النواحي. لأنّ العلماء والمشايخ ليست لهم غيرة دينية حتى ينشروا العلوم والمعارف...(الجندي, 1979, ص 266)

من هذا المنطلق كانت بداية نشأة الطريقة الصوفية السنوسية؛ التي ستأخذ على عاتقها الجمع بين أفكار أحمد بن عبد الوهاب وبين منهج الحركة الصوفية، والمزج بينهما لتحقيق هدف بناء الشخصية الإسلامية، تجمع بين تربية إسلامية تأخذ من الفقه ما يثير العقول، وتربية صوفية تصلح النفوس (الجندي, 1979, ص 63) وكان السنوسي قبل تأسيسه للطريقة السنوسية قد انخرط في عدة طرق دينية، كالطريقة التيجانية، أثناء إقامته بمراكش، والطريقة الشاذلية والطريقة الناصرية والطريقة القادرية، أثناء إقامته بالحجاز وكذا الطريقة الإدريسية، إذْ استفاد من كل هذه الطرق واستطاع أنْ يقتبس أحسن ما فيها. وليس معنى هذا أنّه قام بالخلط بين قواعد ومبادئ هذه الطرق، للخروج بطريقة جديدة، بل عمل كخبير في الطرق الصوفية باستخلاص ما بها من أمور تساهم في إصلاح حالة المسلمين، ومزج ذلك بما وصل إليه العالم، من تقدم في الحضارة والتمدن في شتى مناحي الحياة، في ظل دولة عادلة يعمها الأمن والاستقرار (عبد الله بعيو, 1953, ص 37)

يصف العقاد الطريقة السنوسية؛ بالقول بأنّها ليست بمذهب ولا بنحلة، ولا نقض لمذهب من المذاهب الدينية، بل هي طريقة يتبعها من شاء من المسلمين، ولا يطلب من الذين أرادوا إتباعها سوي غير قراءة الفاتحة على العهد، واتباعها على درجات أولها درجة الخواص ثم الإخوان ثم المنتسبين، ولا فرق بين هذه الدرجات في غير العلم والإخلاص وحسن السيرة والولاء للآخرين ولا يشترط في درجاتها العليا أنْ تنحصر في البيت السنوسي؛ بل يكون منهم الأقرباء وغير الأقرباء (محمد العقاد, 2017, ص 78)

5. مبادئ الطريقة السنوسية:

قامت السنوسية على مبادئ، وأسس يمكن ترتيبها على النحو التالي:

ليست هناك حدود تقسم العالم الإسلامي، فالحركة الإصلاحية يلزم أنْ تكون شاملة لكل أقطاره، وعليها أنْ تكون سياسية وفكرية في الوقت نفسه، أمّا إصلاح جانب دون آخر فذلك نقص في الحركة، فالإسلام دين ودولة، عبادة وعمل.

على المسلمين الانتفاع بالمذاهب المختلفة، (المذاهب الأربعة والمذاهب المغمورة) والدمج بينها فيما يناسب وييسر حياتهم(إبراهيم المشعل, 1404, ص 33)

تحرير الفقه الإسلامي من الخلافات، ومن التعصب المذهبي، الذي ساهم ويساهم في تأخر المسلمين، والإسلام بريء من ذلك كله (الشريف السنوسي, 2021, ص 77)

فتح باب الاجتهاد، وتحرير الفكر من التقليد الأعمى، والتسليم العاجز فقد كان السنوسي يرفض التقليد، وكان يدعو إلى الاجتهاد باعتباره ضرورة عقلية، يبعث الحيوية في الإسلام ويزيد من التمسك به، حيث يجد معتنقه الحلول المناسبة للمشاكل التي تتجدد في كل زمان ومكان.

رغم أنّ السنوسي كان من اتباع المذهب المالكي، إلّا أنَّه اجتهد في عدد من المسائل مخالفا فيها مشهور المذهب، ودوَّنها في كتابه بغية المقاصد في خلاصة المراصد، والمسائل العشرة هي: (رفع اليدين، القبض، سكوت المصلّي في ثلاثة مواضع، الاستعاذة، البسملة، التأمين، التكبير في القيام من الثانية، والسلام، والقنوت، وتطويل الصلاة وتقصيرها والتوسُّط).

العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى، وذلك عن طريق الاعتماد على الكتاب والسنة وتصفية ما لحق بالإسلام من بدع وخرافات، وأفكار فلسفية شاذة روجتها بعض الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، مثل دعوى الاتحاد والحلول، ووحدة الوجود.

محاربة ما بالطرق الصوفية من بدع وخرافات، ومن أشكال المبالغة في الذكر، وما يصاحبه من استعمال للدفوف والرقص والإيمان بالخوارق، وتقديس الأولياء، والمشايخ والخمول والاستجداء (الجندي, 1979, ص 266)

التصوف الصحيح لا يعني التواكل والانصراف إلى العبادة فقط، بل يجب أنْ يُقرن بالعلم والعمل فهما عبادتان، شأنهما شأن باقي العبادات من صلاة وصوم وذكر لله (إبراهيم المشعل, 1404, ص 58)

الدعوة إلى عدم الاقتصار؛ على تلقِّي العلوم العقليَّة والنقليَّة، بل يجب على المسلم تعلم المهن والحِرف والصناعات؛ كالبناء والنجارة والحدادة والغزل والتجليد، وصناعة البارود وتصليح الأسلحة.

العمل على نشر الإسلام؛ سواء بنشره في بلد هو في الأصل مسلم، لكنه يعيش في ركود وجمود، وسط البدع والخرافات والصوفية الضالة(إبراهيم المشعل, 1404, ص 33) أو بنشره في بلد لم يصله الإسلام أو وصله من قبل، وتغلبت الوثنية على عقول الناس فيه(الجندي, 1979, ص 221).

يقول أنور الجندي على مبادئ السنوسية:

انبعثت السنوسية من دعوة التوحيد؛ وهي حركة ودعوة وطريقة، قد صيغت على جامع محرر لمفهوم الإسلام المتكامل بين التصوف، والفقه، والعقيدة. وهي ذات صلة بالنسب مع مفاهيم دعوة التوحيد. وهي في نفس الوقت تشكيل اجتماعي تربوي على نمط الصوفية ودعوات الفتوة والجهاد متحرراً من الأخطاء والانحرافات التي وقع فيها بعض الصوفية. (الجندي, 1979, ص 263)

أما محمد عمارة فقال عن السنوسية فيما يخص مبادئها:

هي لقاء بين الشريعة والحقيقة، ومزاوجة بين النص والذوق، ففيها السلفية التي تعتمد براهين الكتاب والسنة، وتنكر الوسائط، وفيها التصوف الذي يقصد إلى مجاهدة النفس، وتزكيتها، فكانت طريقته تمزج بين الطريقة البرهانية والطريقة الإشراقية، كما أنّها لا تقف عند العلوم الشرعية بل تخطتها إلى العلوم العقلية، مثل علم الفلك، وتقتني أدوات مثل الإسطرلاب والكرات والأزياج.)عمارة, 2011, ص 262–263((

6. تأسيس الزوايا السنوسية في الحجاز:

من بين الوسائل التي سيعمل السنوسي على إنشائها، وتطويرها لتحقيق هدفه المسطر هو بناء الزوايا الدينية (علي الصلابي, 2001, ص 97)، التي ستكون بمثابة الرباط، فالزاوية عند السنوسي هي نموذج جديد للرباط القديم.

كانت زاوية أبي قبيس هي أول زاوية يؤسسها السنوسي، فوق جبل أبي قبيس؛ المشرف على البيت الحرام(عمارة, 2011, ص 263) سنة 1837م. وكان اختياره لموقع الزاوية لكثرة زوار المسلمين من أنحاء العالم الإسلامي لمكة المكرمة، مما يسهل عليه الاتصال بهم، وينشر دعوته بينهم إلى جانب معرفة ما يدور في بلاد المسلمين من أحداث (إبن إدريس الأشهب, 1956, ص 13) كما كانت زاوية أبي قبيس مركزا للرئاسة العامة

للزوايا السنوسية التي سينشئها السنوسي في حياته، والبالغ عددها حسب ما أورده الأشهب 52 زاوية(إبن إدريس الأشهب, 1956, ص 42). داخل الحجاز وخارجه، قبل أنْ تتحول الرئاسة مؤقتا؛ إلى زاوية البيضاء ببرقة الليبية في الفترة الواقعة ما بين 1843-1846م. وهي فترة إقامة إبن السنوسي بها، ثم يعود مركز الرئاسة لزاوية أبي قبيس من جديد في الفترة الواقعة بين 1854-1859م، ثم ستتحول الرئاسة نهائيا إلى زاوية الجغبوب ببرقه بانتقال السنوسي إلى هذه المنطقة.

كانت زاوية أبي قبيس مكونة من مسجد ومدرسة للتعليم، ومساكن لقبول الطلاب الزائرين والمسافرين. وعُين عبد الله التواتي، كأول شيخ لها. وقد شرع السنوسي في إلقاء الدروس في زاويته وتعليم من يقصدها، من المريدين وطلاب العلم، كما كان لا يفوت موسم الحج؛ للالتقاء بالحجاج القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فكان يحتك بهم ويعرض عليهم دعوته، فاشتهر أمره بينهم، حيث كانوا يتوافدون لرؤيته والسماع عنه، وساد بينهم أنّه من أولياء الله الصالحين. واستطاع السنوسي حسب قول الديجاني أنْ يضيء في كل مكان حلّ فيه، وأنْ يوجه المعتقدين ببركته توجهاً طيباً.(الدجاني, 1967, ص 95)

إلى جانب إنتشار الطريقة السنوسية بين الحجاج، انتشرت كذلك بين الحجاج الحجازيين وحظيت بإقبال عدد كبير من أهالي الحجاز. ويذكر أنّ العديد من القبائل الحجازية اعتنقت الطريقة السنوسية منها قبيلة حرب، التي تقع مضاربها بين مكة والمدينة. وأدى هذا على أنْ سمي موكب السنوسي في الحج ب "ركب الإخوان ". وكان يحظى بحماية القبيلة (هورخونيه, 1999, ص 275). كما انضم عدد من أبناء قبيلة بني الحارث لتلك الزوايا. ومازال أفراد القبيلتين يدينون بالتبعية للطريقة السنوسية بدفع الزكاة إلى زواياها المنتشرة هناك (عبد الله بعيو, 1953, ص 27)

كما يقول صادق المؤيد، أنّه من نتائج العمل الدعوي للسنوسي أنْ تحولت القبائل نصف المتوحشة إلى أناس متعلمين. بعد أنْ تخلوا عن الخشونة التي كانوا يتسمون بها (المؤيد, د.ت, ص 75) احتى أصبح قُطاع الطرق منهم لا يعترضون للقوافل التي بها جماعة

السنوسيين احتراما للسنوسي [1]. وبعد ازدياد أتباعه قام السنوسي ببناء زوايا أخرى، في أنحاء الحجاز يمكن عدها على النحو التالي:

- زاوية الطائف. ويطلق عليها كذلك مسجد الربع، أو مسجد الطرابلسي. وقد بُنيت على سفح جبل ابن منديل.
- زاوية العنبرية بالمدينة المنورة.
- زاوية جدة.
- زاوية الطائف.
- زاوية منى.
-زاوية بدر(إبن إدريس الأشهب, 1956, ص 13).

بعد وفاة السنوسي ازداد عدد الزوايا، التي خلفها، لتصبح 25 زاوية في شبه الجزيرة العربية (عمارة, 2011, ص 264)

7. فلسفة الزوايا السنوسية:

تتميز الزوايا السنوسية عن باقي زوايا الطرق الصوفية؛ من حيث موقع وشكل بنائها، وتنظيمها الداخلي ورسالتها الدينية. فهي تقوم على الكتاب والسنة، وبعيدة عن البدع والخرافات، لهذا لم تجد معارضة من الحركة الوهابية التي دخلت في حرب ضد باقي الطرق الصوفية في الحجاز. ولم يجد الوهابيون في الطريقة السنوسية ما يتعارض مع أفكارهم، لهذا لم يتدخلوا في نشاطها في بلاد الحجاز (عبد الله بعيو, 1953, ص 41)

كما أنّ السنوسي طور من مفهوم الزاوية، فجعل منها النواة الأولى؛ لمجتمع تحكمه سلطة وعليه واجبات؛ اجتماعية، اقتصادية، سياسية ودعوية، وجهادية أيضا. يقول ابن السنوسي في إحدى رسائله لحاكم فزان مصطفى باشا:

[1] انتشر في الحجاز نبأ موت أحد قطاع الطرق شر موته وكان قد قتل التواتي في عملية سطو على قافلة: أنظر الرواية في كتاب أحمد الدجاني، المرجع السابق، ص90. كما جاء في كتاب أحمد الشريف الكوكب الزاهر، ص 80 الرواية التالية أن مجموعة من اللصوص قتلوا التواتي أحد المقربين من السنوسي فدعا عليهم فماتوا شر ميتة وانتشر خبر ذلك فأخذ اللصوص يتوخون مهاجمة السنوسيين ويتقربون منهم بالهدايا.

"...الزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله، ومسجد من مساجده ... والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة، وتعمر بها البلاد، ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية، لأنّها ما أُسست إلا لقراءة القرآن، ولنشر شريعة أفضل..."(إبن إدريس الأشهب, 1956, ص 141–142)

وحسب صادق باشا المؤيد كان لكل زاوية من هذه الزوايا عمل خاص، فزاوية أبي قبيس فيها مسجد شريف ومدرسة للتعليم، ومساكن لاستقبال الزوار والمسافرين، وتكتظ هذه الزاوية بالناس في موسم الحج خاصة. أمّا زاوية جدّة فكانت تستقبل الوافدين من المنسوبين للطريقة وغيرهم، وتتولى إسكانهم وإعاشتهم مجانا، فهي محل ضيافة عامة لعابري السبيل(المؤيد, د.ت, ص 75)

ويمكن تحديد خصائص الزوايا السنوسية على النحو التالي:

يتم بناء الزاوية السنوسية بعد الاتفاق بين إحدى القبائل وإبن السنوسي، وفق الخطوات التالية:

- يقوم السنوسي باختيار وتحديد موقع الزاوية.
- تقوم القبيلة ببناء الزاوية.
- يعين السنوسي جهاز إداري مكلف بإدارة الزاوية.

يتكون الجهاز الإداري للزاوية من شيخ الطريقة، يساعده مجلس الشورى ومجموعة الإخوان السنوسيين، ومهمتهم التدريس والقيام بالمهام الموكلة إليهم من طرف شيخ الزاوية.

أما مهام الزاوية؛ فهي تعليم وتكوين في الجانبين الديني (علوم الدين) والعملي (الزراعة والصناعة وغيرهما من الحرف)

8. طلبة ومريدي السنوسي في الحجاز:

كون السنوسي مجموعة من الطبلة؛ تشبعوا بتعاليم السنوسية، وأخلصوا لها، وتحولوا إلى حاملي مشعلها في أرجاء العالم الإسلامي، مما مكن الطريقة السنوسية من الانتشار السريع خارج الحجاز ومن هؤلاء نجد كل من:

الشيخ فالح الظاهري من الحجاز، يُعد من أبرز تلاميذ الزوايا السنوسية، حظي بمكانة علمية مرموقة أهلته للتدريس في مناطق إسلامية عديدة، حتى استدعاه السلطان عبد الحميد للتدريس في إسطنبول (بنت عواد المريطب, 2018, ص 202)

- محمد بن الصادق الطائفي.
- أبو القاسم التواتي من الجزائر، وكان مرشحا لخلافة السنوسي إلا أنّه، قُتل سنة 1851م، قرب المدينة المنورة.(أبو القاسم, 2007, ص 253)
- علي بن عبد المولى من تونس.
- محمد بن الشفيع من السودان.
- عمران بن بركة الفيتوري من طرابلس.
- أحمد بن عبد القادر الريفي من المغرب الأقصى.
- محمد مصطفى المدني من بلدة تلمسان بالجزائر.

9. المؤلفات العلمية للسنوسي:

ألف السنوسي عدة كتب، اختلف المؤرخون حول عددها، فمن الصعب تحديد عددها بدقة، خاصة إذا ما عرفنا أنّ منها ما طُبع وبعض آخر مازال مخطوطا، كما أنّ بعضها الآخر فُقد بعد الاحتلال الإيطالي لليبيا. وحسب ما أورده إسماعيل باشا البغدادي؛ في كتابه هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، فإنّ السنوسي ألف أكثر من خمسة وثلاثين بين كتاب ورسالة(البغدادي, 1951, ص 400–401) بينما هناك دراسة حديثة جادة للباحث أحمد محمد جاب الله؛ تقول أنّ عدد الكتب التي ألفها السنوسي؛ هي 61 مؤلفا، ما بين مخطوط ومطبوع ومفقود (محمد جاب الله, 2019, ص 220–221)

ويمكن تصنيف الكتب المعروفة للسنوسي على النحو التالي:

أولا: كتب فقهية وصوفية من أهمها:

- كتاب السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين: تكلم فيه عن سلسلة الطرق الصوفية، التي خالطها ودرسها، وما بها من صواب وخطأ، وليختم بها الطريق المثلى التي اهتدى إليها، وهي الطريقة المبنية على ما جاء في الكتاب والسنة.
- كتاب بغية المقاصد، في خلاصة المراصد تناول فيه 10 مسائل فقهية، خالف فيها السنوسي مذهب الإمام مالك، مُبينا بالدليل والحجة صواب رأيه.
- كتاب إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، وهو في أصول الفقه، بَيّنَ فيه وجهة نظره في الاجتهاد. فحسب السنوسي فالدعوة السنوسية، تقوم على الكتاب والسنة وهما

مصدري الشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى اجتهاد علماء المسلمين، لكن يجب عدم الوقوف على ما قاله العلماء، إذا كان بالإمكان الرجوع إلى القرآن والسنة، كما أنّ تغيير الظروف الزمانية والمكانية تتحكم في الفتاوى، التي يقول بها العلماء، وبالتالي لا يمكن جعل فتاويهم وحي مُنزل وعليه يجب فتح باب الاجتهاد، لأنّ زمانهم وزماننا هذا مختلفين(الدجاني, 1967, ص 151–152)

- مقدمة موطأ الإمام مالك، عبارة مقدمة، في بيان كتاب الموطأ، ومكانته بين كتب السنة على جانب تقديم بعض الشروحات مما جاء فيه.

ثانيا: كتابان في التاريخ

- الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسي.
- مختصر بُغية الطلاب في علم الأنساب.

ثالثا: كتاب في الرياضيات بعنوان ريحانة الحبوب في عمل السطوح والجيوب.

رابعا: كتب مختلفة المواضيع.

الخاتمة:

تُعتبر الحركة السنوسية من أكبر الحركات الإصلاحية، التي شهدها القرن التاسع عشر في العالم الإسلامي، نتيجة تأثيراتها المتعددة، فمن الحجاز؛ حيث ولدت وانتشرت إلى باقي أرجاء العالم الإسلامي، خاصة في شمال إفريقيا ووسطها. ويمكن حصر أهم النتائج المتوصل إليها بخصوصها في هذا البحث:

انتهج السنوسي في حركته الإصلاحية منهجا تربويا راشدًا، استمده من كتاب الله وسنة رسوله ومن خبرته بالطرق الصوفية.

عمل السنوسي على اختيار الحجاز لنشر دعوته، حتى تصل لكل أرجاء العالم الإسلامي.

نجح السنوسي في استقطاب القبائل الحجازية، وضمها إلى السنوسية، وهي قبائل كان يَصعُبُ إرضاؤُها والتعامل معها.

أثبتت الزوايا السنوسية نجاحها، في نشر الفكر الصلاحي، وسط الحجيج وأهل الحجاز.

- لم يكتف السنوسي؛ بالعمل الميداني، بل عمل على تأليف العديد من الكتب التي تعتبر إلى يومنا هذا مصدرا، من مصادر الفقه الإسلامي.

- يعتبر السنوسي أول مصلح يدمج التصوف بالعمل الدُنيوي، ويُبعد التصوف عن الاقتصار على الزهد والانزواء عن الناس.

قائمة المراجع:

إبراهيم المشعل, إ. ب. م. (1404). الدعوة السنوسية دراسة وتقويم (ماجستير). جامعة الإمام محمد بن محمد بن سعود الإسلامية, السعودية.

إبن إدريس الأشهب, م. ا. (1956). السنوسي الكبير عرض وتحليل لدعامة الإصلاح السنوسي. القاهرة: مطبعة محمد عاطف.

أبو القاسم, س. ا. (2007). تاريخ الجزائر الثقافي (م 1–4). الجزائر: دار البصائر للتوزيع والنشر.

البغدادي, إ. (1951). هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (م 2). إسطنبول: مؤسسة التاريخ العربي.

الجندي, أ. (1979). العالم الإسلامي والإستعمار السياسي والإجتماعي والثقافي. بيروت: دار الكتاب اللبناني.

الدجاني, أ. ص. (1967). الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن19م. بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر.

الشريف السنوسي, أ. (2021). مختصر الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية (أ. محمد جاد الله, تحقيق). ليبيا: مجمع ليبيا للدراسات المتقدمة.

المؤيد, ص. ب. (د.ت). رحلة حضرة صاحب السّعادة عظم زاده باشا المؤيد إلى صحراء إفريقية الكبرى".. (ج. ب. العظم, ترجمة). إسطنبول: مطبعة طاهر بك صاحب جرائد المعلومات.

بنت عواد المريطب, م. (2018). اثر الحركة السنوسية في منطقة الحجاز الشيخ فالح الظاهري. مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة الملك عبد العزيز, 27.(4)

شكري, م. ف. (1948). السنوسية دين ودولة. القاهرة: دار الفكر العربي.

عبد القادر بن علي, ع. ا. (1966). الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية. دمشق: مطبعة دار الجزائر العربية.

عبد الله بعيو, م. (1953). دراسات في التاريخ اللوبي الأسس التاريخية لمستقبل ليبيا. الإسكندرية: مطابع عبدين.

علي الصلابي, م. (2001). الثمار الزكية للحركة السنوسيةفي ليبيا (م 1). القاهرة: مكتبة التابعين.

علي, ع. أ. (2017). التصوف والطرق الصوفية في العهد العثماني (بيسان للنشر والتوزيع). بيروت.

عمارة, م. (2011). تيارات الفكر الإسلامي (4 ط). القاهرة: دار الشروق.

محمد العقاد, ع. (2017). الإسلام في القرن العشرين. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي للنشر.

محمد جاب الله, أ. (2019). لمحات من الحركة العلمية في الزاوية السنوسية. السنوسية من الزاوية إلى الدولة. قُدِّم في أعمال الندوة العلمية الثانية, الجغبوب (ليبيا). الجغبوب (ليبيا).

هورخونيه, س. (1999). صفحات من تاريخ مكة المكرمة (م 2; ع. عودة الشيوخ, ترجمة). الرياض: دارة الملك عبد العزيز.